المعاني أولاً في نفسِك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظَ في نطقِك . وإنّـَا لو فَرَضْنا أن تخلوَ ألفاظُ من المعاني لم يتصوّـَر أنْ يجبَ فيها نظمٌ وترتيبٌ في غاية القوّـَة والظهورِ . ثم ترى الذين لـَهـَجوا بأمر اللفظ قد أبـَوا إلاّ أَنْ يجعلوا النظمَ في الألفاظِ . فترى الرجلَ منهم يرى ويعلمُ أن الإِنسانَ لا يستطيع أن يجيءَ بالألفاظ مرتّـَبة إلاّ من بعد أن يفكرَ في المعاني ويرتّـِبها في نفسه على ما أعلمناك ثم تفتّـِشُه فتراه لا يعرفُ الأمرَ بحقيقته وتراه ينظرُ إلى حالِ السامع . فإِذا رأى المعاني لا تقعُ مرتّـَبةً في نفسه إلاّ من بعدِ أن تقعَ الألفاظ مرتبة في سمعه نسيَ حالَ نفسِه واعتبرَ حالَ مَنْ يسمعُ منه . سببُ ذلك قِصَرُ الهمة وضَعْفُ العناية وتركُ النظرِ والأنسُ بالتقليد . وما يُغْني وضوحُ الدلالةِ معَ مَنْ لا ينظرُ فيها . وإنّـَ الصبحَ ليملأُ الأفقَ ثم لا يراهُ النائمُ ومَن قد أطبق جفنه .

واعلمْ أنكَ لا ترى في الدنيا علماً قد جرى الأمرُ فيه بديئاً وأخيراً على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان . أما البديءُ فهو أنّـَك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلاّ وإذا تأملتَ كلامَ الأولين الذين علّـَموا الناس وجدتَ لعبارةَ فيه أكثرَ من الإِشارة والتصريحَ أغلبَ من التلويح . والأمرُ في علمِ الفصاحة بالضدّـِ من هذا فإِنك إِذا قرأتَ ما قاله العلماءُ فيه وجدتَ جُلّـَه أو كلّـَه رمزاً ووَحْياً وكنايةً وتعريضاً وإيماء إلى الغرض من وجهٍ لا يفطنُ له إلاّ من غَلـَغل الفكرَ وأدقّـَ النظرَ . ومن يرجعْ من طبعه إلى ألمعيةٍ يَقْوى معها على الغامض ويصلُ بها إلى الخفيّـِ حتى كان بسلاً حراماً أن تتجلّـَى معانيهم سافرةَ الأوجه لا نقابَ لها وباديةَ الصّـَفحةِ لا حجابَ دونَها . وحتى كأنَ الإِفصاحَ بها حرامٌ وذِكرَها إلاّ على سبيل الكناية والتعريض غيرُ سائغ